تاريخ اسبانية
في عهدها الاسلامي

بحث انتقادي للاب اسطفان لاتور اليسوعي

تعريب الاب تونل اليسوعي

كنا في الماضي مدينين للعلامة دوزي (Dozy) الهولندي الكبير بالكثير من معارفنا عن التاريخ الاسباني الاسلامي ؛ واليوم لنا من ابحاث السيد لاڤي پروڤنسال في هذه الناحية ما يفتح امام وجوهنا آفاقاً لم نكن قد رأيناها ، ويكشف القناع عن موادَ كانت خافية علينا ، وقد ثبتت اوضاعها تثبيتاً لا شك في صحته ، وذلك في الكتاب الذي نشره العالم المذكور ، سنة ١٩٤٤ ، تحت اشراف المؤسسة الاثرية الفرنسية في القاهرة اعني به «تاريخ اسبانية في عهدها الاسلامي[1]» . والمجلد الاول منه يشمل السنين المنقضية من مطلع الفتح حتى انقراض الخلافة القرطبية (٧١٠ — ١٠٣١ م) .

ولم يقدم الاستاذ لاڤي پروڤنسال على هذا النشر الا بعد ان استمدّ له بجهود آتت ثمارها في عدة مؤلفات جديدة هي هذه :

— اسبانية الاسلامية في القرن العاشر .

— المدنية العربية في اسبانية .

— شبه جزيرة ايبرية في القرون الوسطى ، اخذاً عن كتاب الروض المعطار لابن عبد المؤمن الحميدي ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ومن غير ذلك من المصادر التي كانت الى الامس القريب غير منشورة بعد كمجموعة « الكتابات الاثرية العربية في اسبانية » و « البقايا غير المطبوعة » والابحاث الاخرى المنشورة في

1) E. Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne Musulmane*. t. 1 ; De la Conquête à la chute du Califat de Cordoue (710-1031 J. C.) [Etudes Historiques publiées par l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. V. 1.]

مجلات الاستشراق ، فضلًا عن طبعة جديدة لكتاب دوزي اصدرها لافي بروفنسال نفسه سنة ١٩٣٢ ، بعد ان اعاد النظر فيها بالدقة والتمحيص .

ويؤدّي بنا الكلام عن هذا الكتاب الى وصف اقسامه اولًا ، ثمّ الى البحث في قيمة موادّه:

قسم المؤلف كتابه جزئين : ١ً = الامارة . ٢ً = الخلافة .

ينقسم الجزء الاول — الامارة — اربعة فصول : ١ً الفتوحات ونشر الدين الاسلامي . ٢ً نشأة الامارة الاموية في قرطبة . ٣ً سلطنة عبد الرحمن الثاني (وفيها بلغت الدولة ذراها) . ٤ً ازمة الإمارة من السنة ٨٥٢ الى السنة ٩١٢م.

اما الجزء الثاني فاليك فصوله : ١ً عبد الرحمن الثالث اميرًا وخليفة . ٢ً اسبانية على عهد الخلافة من ٩٦١ الى ١٠٠٨ ، مع سيادة بني عامر عليها . ٣ً انحطاط خلافة قرطبة وانقراضها (١٠٠٨ — ١٠٣١) .

وقد قدّم على التاريخ الذي تبسّط في كتابته لائحةً ذكر فيها المراجع التي رددها واستند اليها (مشيرًا باختصار الى مواطنها) في النصوص العربية واللاتينية مع ترجمتها وفي المؤلفات او المقالات العصرية ، عائدًا بالقارئ في اسفل الصفحات الى المصادر والكتب الحديثة مع ذكر المتن والصفحات المناسبة له في الترجمة عند الحصول عليها[1] .

---

١) اننا لا نتردد في تعداد المصادر التي نشرت بعد ظهور مؤلف دوزي وقد استفاد منها لافي بروفنسال في تاريخه ، وهي مبروفة واكثرها وصفه المستشرق غونزالس بالنسيا (Gonzalez Palencia) في لائحة المراجع التي اضافها الى تاريخه الاسباني الاسلامي . وحسبنا الاشارة الى ما ظهر منها ، بعد السنة ١٩٣٢ ، اي بعد ان نشر لافي بروفنسال مؤلف دوزي المجدّدة طبعته . واليك اهمها :

— المقتبس لابن حيان وقد استفاد المؤلف من مخطوطته ، ولكن ما كتبه على مملكة عبدالله رجع فيه الى الجزء الذي نشره المرحوم الاب ملكيور انطونيا (Melcor Antuña) سنة ١٩٣٧ .

— الذخيرة لابن بسام . وفيها نشر جزء من تاريخ بني عامر لابن حيان ايضًا . اما الاجزاء الباقية فهي الآن قيد الإعداد .

— ابن الخطيب : ١ً الاعمال وقد نشر المؤلف جزءًا منه . ٢ً الاحاطة ، وقد استعمل من الكتاب مخطوطة الاسكوريال .

والكتاب الذي نحن بصدده مزين بثمان لوحات مصورة تصويرًا مبتكرًا . اضف اليها تسع خرائط جغرافية واربعة جداول للانساب وفهرسًا ابجديًا كاملًا . هذا وكل حدث او جزء يستحق الذكر قُدّم عليه بعرض للحالة ليس بالطويل المملّ ولا بالقصير المخلّ .

واذ نجتاز اقسام الكتاب الى الكلام على ميزاته الداخلية، نرانا مضطرين الى القول ان بين يدينا تاريخًا جهد صاحبه في تمحيصه حتى اخرجه الى الملأ كتابًا حيًا كاملًا متناسب الاوضاع ، وقد نظمت كل مادّة من مواده في موضعها ، بعد تقرير قيمتها ، بالرغم من كثرة عناصره وخطورتها وتباين مصادرها . واذا جرت المقابلة بين هذا التاريخ وتاريخ دوزي كان الاول (اي هذا) اكثر توازنًا في الاجزاء من الآخر الذي يسهب في بعض المواد ويوجز في بعضها الآخر . ولم يعرض المؤلف لتحرير الحوادث الّا وقد وطّأ لها عن ادراك وبصيرة ، مظهرًا تطوّرها مميّزًا عللها واسبابها ، متعمقًا في معرفة عوامل الاشخاص النفسية وطباعهم الخلقية . وهذه الحسنة يقدرها له العارفون ، لكثرة ما يُرى اليوم من اهمال بعض المراجع لهذه الناحية في المؤلفات التي تهم القراء المعاصرين سواء أسكتت عنها ام ذكرتها اعتباطًا في النفس .

كان دوزي قد تعرّف الى الكثير من تلك المراجع ، واستفاد منها ، شأن غيره ممن سار على خطته . اما العلامة لاقي بروفنسال فقد اضاف الى ذلك الاستفادة من مصادر كانت لا تزال مجهولة حتى الى عشر سنين خلت ، او من كشفه عناصر جديدة في نصوص معروفة ، ولم يكن العلماء بعد قد اعملوا فيها الروية ، ولا اهتموا بعرضها على محكّ النقد . من هذه المصادر ما كان بعض العلماء الاسبان والفرنسيون قد عنوا بنشرها اجابة لدعوة المؤلف الذي كان اول من وجهها اليهم في هذا المعنى .

اما اسلوب الكتاب فمن الانشاء القصصي اللذيذ اودعه مؤلفه ملاحظات مقتضبة قيمة على المصادر وحالتها وقيمتها والحوادث ومراميها . ولا عجب ،

— عدة اجزاء او بقايا تاريخية نشرها لاقي بروفنسال .

— مؤلفان لم يطبعا بعد ، ومنها مخطوطتان بيد المؤلف نفسه وهما : جمهرة الانساب لابن حزم ، وتاريخ الناصر لمؤلف مغفل .

والرجل معروف في عالم الادب وقد عالج التاريخ بنظرات فلسفية خاطفة ، فلم يألُ جهدًا في ابراز الحوادث بصورتها الصحيحة ، مستندًا في ذلك اما الى الحواشي واما الى كتاب دوزي فيما يرويه من حكايات طريفة ليس لها علاقة بالتاريخ ذاته . ونرى في الحواشي[1] التعليقات والتدقيقات والمناقشات فضلًا عن بعض الافتراضات — التي يظهر ان المؤلف قليل الميل اليها — خاصةً في ناحية تقويم الازمنة واسماء الامكنة والاعلام . ولا يسعنا الا الاشارة الى تضلع المؤلف من درس مواقع الامكنة في اسبانية الاسلامية فانه قد عرفها معرفة شاهد عيان .

ولا ريب في زيادة شوقنا لمطالعة كتابه حين تقع فيه تحت لحاظنا صور فنية للاشخاص استصنعها المؤلف محورين من المهرة بعد ان قدم لهم عنها المعلومات التاريخية .

---

١) وهناك من المستغربات ما يتخذه المؤلف وسيلة ليسرد الحوادث الطريفة او ليبين من مظاهر الحياة ما يزيد في دقة الحديث ، مثال ذلك تعداده التحف والهدايا التي قدمها احمد ابن شهيد ذو الوزارتين الى الخليفة الناصر . فقد تبين الى اي درجة من الغنى والثروة كان وصل في ذلك العهد لا العامل الاموي فحسب ، ولكن عمال الاسر العربية النبيلة الكبرى ، وهذه لائحة تلك الهدايا : اهدى الوزير الى الملك ٥٠٠ الف مثقال من الذهب نقودًا و ٤٠٠ اقة من سبائك الذهب ، و ٢٠٠ كيس من سبائك الفضة المقدرة قيمتها بـ ٤٥ الف دينار — كمية من عود الند الثمين المستعمل وقودًا للمجامر — مسك — كافور — ثلاثون قطعة من القماش الحرير المزركشة بالذهب — خمس حلل فاخرة ثمينة — عشر فراء سبع منها من جلد الثعلب الحراساني الابيض — سبع حلل من حرير عراقي — ٤٨ ثوبًا للملابس النهار — ١٠٠ ثوب للملابس الليل — مئة جلد سمور — ٦ خيم للدرادق — ٤٨ قطوعًا حريريًا مزركشًا بالذهب — ٦ آلاف اقة حرير منزول والف اقة من الحرير الخاص لصانع الطراز الملوكية — ثلاثون بساط من الصوف — مئة سجادة للصلاة — ١٥ بساطًا من حرير — مئة شكة للايام الاحتفالية — الف ترس — مئة الف سهم — مئة حصان ١٥ منها اصيلة وخمسة بعددها وسروجها المذهبة — خمسة الاف بغل من البغال الغالية الثمن — ستون عبدًا : اربعون من الذكور وعشرون من الاناث — كمية وافرة من الحجارة والخشب لبناء القصور — وهذه العادة اي ان يقدم الموالي لسيدهم الهدايا كانت شائعة دائمًا في الديار الاسلامية ، ولا يسعنا الا ان نجد علاقة ما بينها وبين النظام الذي نشأ بعد حين في شراء الوظائف بالمال .

اضف الى ذلك ان الخليفة نفسه كان يغمر رجال بطانته بالهدايا ويعطي يد سخية التقادم للبعثات العديدة التي كانت تتوافد الى قرطبة عاصمة مملكته حينًا من اسبانية وآونة من افريقية او بيزنطية او غيرها من الممالك الاوربية .

وقد ينال هؤلاء الاشخاص في تلك الاوصاف من سرد الحوادث المتصلة بهم فوراً ما ينعكس عليهم فتظهر منهـا اخلاقهم ظهوراً يزداد وضوحاً كلما ازداد البحث عنهم عمقاً[1] . ولقد رأينا هذا الكلام يصح تماماً خاصةً في تاريخ

١) هاك صورة عبد الرحمن الثالث كما برزت من ريشة لافي بروفنسال : فهو مربوع القامة بل قصيرها وقد بدا قصره حتى على متن جواده . اما ما سوى ذلك من اوصافه فهو حسن الطلعة متناسب الملامح بعينين زرقاوين قانئتين ، وشعر اصهب ضارب الى الحمرة ، وقد يصبغه بالاسود ليخفي لونه الاعجمي ، لانه ليس اموياً بل من صميم الاندلس ويجري في عروقه مزيج من دم اسباني ودم اوربي .

كانت امه مزنة جارية من سبايا الافرنج وقيل انها غاسكونية ، كذلك كانت الاميرة اينيفة ابنة فرتون الاعور (Fortun ie Borgne) جدة عبد الرحمن . وهذا كان في عنفوان شبابه النض حين التي عـلى كاهله حمل الخلافة الثقيل بعد موت جده عبدالله وهو يكاد لا يبلغ بعد سن الرشد . ولد عبد الرحمن هذا في ٧ كانون الثاني سنة ٨٩٢ (٢٢ رمضان ٢٧٧) قبل ان يُقتل ابوه بنحو ثلاثة اسابيع . وقد شبّ مزدانًا بافضل مواهب العقل والقلب . فكان مثقفاً جليساً كريماً حصيفاً متبصراً في حقائق الامور ، شديد العزم والحزم ، لا تزعزعه الطوارئ مهما اشتدت . اضف الى ذلك طموحه الى العلاء وسمة نظره غير المألوفة عند العامة ، مما مكنه من بسط سيطرته على الفقهاء والادباء وكبار العمال في دولته . اما التديّن فلم يكن من الغلاة فيه ، وكانت مظاهر عبادتـه مدعاة لاجتذاب الاذهان اليه لا غير . وفي ما دون ذلك كان كثير التسامح بين الامراء من سلالته . ولسوف يشكر له المسيحيون واليهود ابدًا ذلك التسامح لانه ادّى الى اصلاح حالهم في ايامه ، وعلى ذلك رأيناهم يغالونه جميعاً بخلوص الولاء والامانة وعرفان الجميل مما كاد يحدوه الى تولية احد المسيحيين المستعربين القضاء الاكبر في قرطبة لولا تظاهرة الفقهاء بالسخط عليه لو فعل . ولعلّ ذلك هو ما دفع بالقاضي السلام ابن عبد العزيز الى القول حين عرف بتحوّل عبد الرحمن عن فكرته تلك : « الحمد لله الذي جعلني في مصاف الذين يقولون : لا اله الّا الله » اي الذين يؤخذ القاضي الاكبر منهم .

وعلى تقدم عبد الرحمن في السن ظل يفوق غيره من امراء المسلمين المعاصرين له بما كان يستشعره في ذاته من جلال الملك وهيبته وبما كان يبديه في مجالسه من التؤدة في الكلام واقامة الحجاب ووضع القوانين والانظمة للدخول على الخليفة ومخاطبته بالعظمة والاجة . فاذا جلس للناس في ديوانه خلته احد ملوك القسطنطينية من القياصرة – ولا تشبيه اوفى للحقيقة من هذا التشبيه – على انه يتراخى عن ذلك التيه اذا ما اختلى الى امرته في بيته ، فانـه يتحدث اليهم عن بديهة ويضحك لمنادمه ويجاوبه ، ولا يتكلف عن استعمال اللغة الرومانية شأن اهل بيئاته ، اذا ما اتخذها آلة للحديث المجرد عن الكلفة وتبادل المزاح .

وقد اتفق المؤرخون من العرب قاطبة على مدح هذا الامير وتقريظه عن كل نقد وذم . ذلك لما كان مزدانًا به من المواهب النادرة التي ما كان مرور الايام الا ليزيدها لمانًا ، وقد

المنصور حاجب ابي عامر المطاع الكلمة . لقد بلغ ذرى المجد بخطوات مشاها منذ نشأته من يوم لاحت على وجهه ملامح النجابة والطموح والفطنة والدهاء ، ولم يلبث ان تغلب في كل المواقع التي وقفت في طريق نجاحه . ولقد صدق المؤلف في تبيانه حصافة المنصور هذا والذكاء الذي عامل به الخليفة ، والفطنة والمداراة اللتين لم يتجرد منهما في اكثر مواقفه ، فضلاً عن تزويده ولده وخليفته بنصائح جد ثمينة ووصية سياسية لخصها المؤلف مستنداً الى ما كتبه عنها ابن حيان .

ولم ينسَ المنصور استغلال الظروف في سبيل مصلحته فرأيناه يؤدّي الاحتراء للخليفة المجرد من سلطته ، ويفتك باقرب المقربين اليه ، اذا ما لقي فيهم مانعاً يحول دون البلوغ الى مآربه . واحسن لاڤي پروڤنسال في وصف سلوكه الطريق المعبدة في السياسة . فذكر تفوّق الحاجب في حل المشاكل التي كانت تخلقها له الملكة الوالدة واسمها صبح «وهي من اصل عربي جرماني» وكانت تحامي عن المنصور . وانتبهت اخيراً الى الدور التمثيلي الذي الجأها اليه ابنها ، وفطنت الى الوسائل التي استعملها بلا تورّع ليتخلص من المصحفي الوزير الاول بعد ان وفق الى التزوج من بنت قائده غالب ، وهي سابقاً زوجة ابن المصحفي ، وقد يعادي المنصور غالباً ذلك الجُندي الصدوق سند الدولة والخادم الامين للخلافة ، لانه لم يستطع احتمال توثيب ذلك القائد البالغ الثانين عاماً من عمره . وقد لام الحاجب على تنكيله بالدولة وكلاهما مدين لها بما ناله كل منهما من رفعة وعظمة . وان في عزله الحاجب والجلوس مكانه في مدينة سالم ، وسلبه اموالها ما دفع غالباً الى الثورة والعصيان ، فسقط في الحرب وترك بعده المجال رحباً للمنصور وحده .

لقد روينا هذه الحوادث لا لنبين فقط اسلوب المؤلف في سرده الاخبار متواصلةً بالرغم مما يتخللها من وقائع وثورات ، ولكن لنظهر فيها ايضاً انموذجاً

ظهرت فيه في مطلع ملكه ورافقته الى نهايته في خلال ما يناهز النصف قرن . ومع ذلك لم يتمكن هذا الامير في خلال تلك الآونة من اداء رسالته بتمامها .

هذه صفحة اخذناها بكمالها عن المؤلف لانها تبين باجلى بيان ما نحن في صدده من صفاته الكتابية : الغنى بالمواد ، وحسن الاختيار ، وحسن فهم اخلاق الاشخاص ، وحسن الذوق في الانشاء . وفي هذا كفاية .

لتلك الدسائس التي لم تكن مختصة ببلاط بغداد فحسب بل طفت بموجات متفاوتة على الخلافة القرطبية في طوال ايامها .

هذا وبعد ان تكلمنا عن اجزاء الكتاب واساليبه، لا نرى بدًا من لفت النظر الى بعض صفات المؤلف في اسلوبه الانشائي التاريخي .

تلك امور كنا نوّهنا بها فيما قلناه سابقاً ، ونزيد الآن انه اي المؤلف لم يهمل فائدة من فوائد الجغرافية وعلم الاثر وعلم الاقتصاد وما له علاقة بالثقافة العامة الا وافى على ذكرها مع المراجع المتصلة بها والتي ينعكس منها نور على المسائل التي بحثها . نعم انه اجل الكلام في المسائل الثقافية الى مجلد آخر لكنه لم يترك فرصة تسنح الا القى فيها نظرات على حياة البلاط الداخلية ، وعلى انتشار الثقافة العربية في اسبانية ، وعلى العلاقات الفكرية بينها وبين بيزنطية وغيرها ، ولم يثبت امرًا الا دعمه بالوثائق الكاملة .

ولقد نوّهنا بتضلعه من معرفة مواقع الامكنة ، فلم يذكرها الا بعد ان تفقدها بذاته وانعم الروية في آثارها ووثق منها . ذلك مما يمكنه من اعادة النظر فيما كتبه قبله علماء الاسبان او الاجانب عنها وتصليح آرائهم فيها ، وان كان المؤلف قد قبض على ناصية الموضوع فالفضل في ذلك لتمكنه من الاجادة في الكلام عنه الى ما شاء الله لولا اعتداله في التأليف – فلا يجازف في استعمال المصادر، وان يكن قد اكتشفها بذاته، بل يعرضها على محك الانتقاد مميزًا فيها النزعات سواء كانت مسيحية ام اسلامية . ولم يكترث لكثرت المؤرخين، ومعروف انهم في القرون الوسطى – كما في غيرها ايضاً – كانوا يهملون ذكر ما لا يروقهم من الامور واذا ما عنّ له ان يشك في حقيقة قضية جاء بالروايات المتنوعة، وربما اكتفى بان يؤدي معنى المصادر الجوهرية مع التلميح الى قلة ثقته في قيمة تأريخها للحوادث .

ان روح الانصاف في الكلام على العلاقات التاريخية بين الاسلام والمسيحية لم تكن سابقاً ، حتى في كبار العلماء المعاصرين، كما اصبحنا نريدها ان تكون اليوم . اما الاستاذ لاڤي پروڤنسال فهو بمنجاة من النقد في هذه الناحية، وشتان بين زمانه والزمان الذي كانوا ينعتون فيه الاسلام ونبيه بنعوت لا يرضاها العلم .

انه يعترف بنقائص المدنية الاموية ومجازفتها الفظيعة بحياة العباد . ولكنه ،

مع ذكره بطش الخلفاء وقساوتهم لم يهمل الاشادة بمحاسنهم وهذه كانت مع نقائصهم على طرفي نقيض ، واليك مثال ذلك : ان عبدالله بعد ان امر بقتل ابنه محمد ، شغف بحب ولد محمد نفسه ، وكان قد ابصر النور ، عشرين يوماً قبل مقتل ابيه ، فولاه العرش بعده عوض اولاده . وهذا الطفل هو الذي عرف بعبد الرحمن الثالث الكبير ، وان في ذلك تفضيلاً آخر لامراء بني امية في الحلم والسياسة لم يغفل المؤلف عن ذكره . ومن فضل العلماء الاسبان واخصهم كوديرا (Codera) وريبيرا (Ribera) وأسين پالاثيوس (Asin Palacios) انهم اظهروا الاسلام في نور جذاب ، فسار لاڤي پروڤنسال وايامهم في تلك الطريق . ثم انه اظهر تقوى الخليفة ، المرتدي مع ذلك ثوب الرياء والدهاء — ذلك التناقض الذي نراه مترادفاً على مدى التاريخ الى يومنا — ولم يفت المؤلف وصف كرم عبد الرحمن وغيرته على الثقافة ، والآداب ، والفنون .

وطالما توخى المؤلف انصاف الاسلام في حقوقه التاريخية ، فقام بذلك كلما اعانته المصادر التاريخية الصحيحة . واشاد بتسامح الاسلام الاسباني ، ولا سيما في كلامه على اضطهاد المسيحيين المستعربين اهل قرطبة .

وقد اتت مكتشفات التاريخ الحديثة عن تلك الايام شاهداً على حسن العلاقات التي كانت تربط المسلمين بالمسيحيين في اسبانية ، وكلما كانت ثقافة الناس عالية ابتعدوا عن التعصب الذميم . ومن الواضح ان الخلفاء كانوا يستخدمون المسيحيين واليهود ، ولا غاية لهم الا خير الدولة . ولفت لاڤي پروڤنسال النظر الى اصل بعض امراء قرطبة ممن كان في عروقهم مزيج من الدم العربي الجرماني او القاسكوني وكانت تظهر في ملامحهم ملامح جدودهم . ومنهم كانت صبح « ام ولد » الشهيرة المذكورة سابقاً ، ولم تكن الزوجة المسيحية الاولى ولا الاخيرة التي تزوجها امير قرطبة . وقد كان في بلاط عبد الرحمن الثالث رجل يهودي اسمه شبروت بن حصداي وكان شخصية بارزة ، عُهد اليه بمهمة لدى ملكة تودا في بلاد ناڤارا Toda de Navarra ؛ فمضى اليها ووفق الى تطبيب ابنها سانشو الكرازو Sancho el Craso والى رده الى الصحة والعافية .

ولا ننسى معاملة عبد الملك المظفر ابن عامر الاعظم ، كرنت قسطيلية

سانشو غارسيا Sancho Garcia ومليدو غونزالز Melnedo Gonzalez وصي الفونس الخامس ملك لاون القاصر ، وقد تحاكما اليه ، وهو امير قرطبة . فارسل اليهما قاضي المسيحيين المستعربين فقضى بينهما وحسم الخلاف في مصلحة لاون . واظهرت بعض المؤلفات الحديثة ان العرب كانوا قليلي الرغبة في ادخال المسيحيين في الاسلام ، لان اعتناق المسيحيين الدين المحمدي كان يعود على الدولة بالضرر الاقتصادي ، لان الجزية التي كان يؤديها اهل الذمة كانت تمنعهم تجربتهم الشخصية ، وان تكن تلك الحرية مقيدة ببعض القيود التي بلغت في بعض الظروف درجة جعلتها ممقوتة بنوع خاص . على ان تلك الازمة العصبية لم تكن لتنسب اجمالا الى امراء قرطبة واستبدادهم .

روى لاڤي پروڤنسال كتاباً ارسله لويس التقي الى مسيحيي قرطبة ومن خلاله ترى ان استياءهم من الدولة كان له في الغالب اسباب غير دينية . ولا عجب من جانب آخر ان لا يميز المسيحيون الخاضعون لنير الاجنبي بين العاطفة الوطنية والغيرة على دينهم في احتجاجاتهم على الدولة . وقد وفق المؤرخ لاڤي پروڤنسال الى وصف تلك الحال عن انصاف واعتدال . فقد اعترف بالصفات العالية والتدين الحار والاستبسال في سبيل المبدأ التي وجدها في الڤاروس (Alvarus) والوجيوس (Eulogius) وفلورا (Flora) وغيرهم ، لكنه لم يتحيز لان موقفهم الاستفزازي لم يكن موافقاً لرأي الاكليروس في مجمع قرطبة الذي عُقد تزولاً على دعوة عبد الرحمن . وقد يكون من رأينا ان اسباب عدم موافقة المجمع على موقف المسيحيين المستعربين السياسي لاسر لم تكشف معمياته كشفاً تاماً . ومن الممكن ان تكون الكنيسة قد اتخذت موقفها الى جانب السلطة واختارت بين الشرين اقلهما . اذ لم يكن من جدوى في المقاومة . وان من عرف المزاج الاسباني وتذكر الحوادث الاخيرة في ايامنا هذه لا يسعه الا ان يقترح التحفظ في ابداء الحكم في هذا الموقف المسالم .

وان ما عرضنا لذكره على جناح السرعة بين الاعتدال والتحفظ والنضج في المؤلف التاريخي الذي عنينا بوصفه ، فضلا عما يظهر في مؤلفه من اصابة الهدف والتنزه عن التحيز . وهذا بين واضح في عدة ظروف اذا ما تكلم عن

بعض التقاليد العزيزة على الاسبان ، والتي ساهمت في تكوين وجدانهم الوطني . واليك الامثلة على ذلك :

ان جهود كوفادونغا (Covadonga) لاستعادة البلاد التي فتحها العرب كانت موضوع تحليل لاثي پروفنسال : بعد ان وفق الى معرفة بعض التواريخ ودرس آراء الباحثين فيها والمدافعين عنها لم يحجم عن الاعتراف بصحتها التاريخية من غير ان يهتم جزيل الاهتمام بالتفاصيل التي جاءت فيها ملهاة لخيال العامة ومن غير ان يكترث لهدمها . وقد يقدر قيمتها اذ يقول : انه من الصواب ان تنجلي بجلي الفخامة في شبه الجزيرة الايبرية تلك المرقعة التي يختلط فيها التاريخ بالاساطير . وفيها اول ظهور العاطفة الوطنية في اسبانية المسيحية . وهي ايضاً علامة سابقة للجهود التي ستبذل لتحرير اراضي شبه الجزيرة ، والتي ستتواصل الى اواخر القرن الخامس عشر مع ما يتخللها من ازمات ومهادنات .

اما وقعة قلعة الـ . . . (Calatañazor) التي قتل فيها المنصور الطاعية بعد ان ابيد عسكره عن بكرة ابيه فليس لها الحق بذكر التاريخ لما فيها من تناقض في التواريخ المذكورة اخذاً عن المصدر المسيحي الوحيد الذي يذكر تلك الوقعة . وهذا ما قد اخذ المؤرخون الاسبان المعاصرون يعترفون به بعد الاستاذ رامون ميننديس پيدال «Ramon Menéndez Pidal» . وان لاثي پروفنسال قد يتجاوز الحد الذي بلغ اليه هذا العالم ، وهو القائل في تلك المعركة انها جاءت على هامش الزمن التاريخي ، وذهب يفتش عن اصلها الاسطوري في موقف الكونت سانشو غارسيا الذي حاز بعض الانتصارات فاتخذت الشاعرية القسطلية من ذكرها منوالاً نسجت عليه ملحمتها . فاجتاز المؤلف الى ابعد من ذلك وقال ان اسطورة قلعة الـ . . . اصلها المرتجع انما هو في ذكر الهزيمة التي كاد يتكبدها المنصور في شهر تموز عام ١٠٠٠ اي لسنتين تقريباً قبل موته في مواقعته شرقيرا (Cervera) . وقال المؤلف : «بالرغم عن عاقبتها الوخيمة على المسيحية الاسبانية ، باتت تلك الواقعة لزمان طويل رمزاً لقوة ارادة قسطيلية ولاون وناڤار في مقاومة خطر المهاجمة الاسبانية الاسلامية المحدق بها ، وذلك بفضل القائد الحزوم العامل الكونت القسطلي سانشو غارسيا» . فلا عجب ان جاءت الاساطير بعدها

تشيد وتفاخر بذكر تلك المقاومة وتلوّن مع الايام ، وادّها بلون الحقيقة التاريخية . ولا يخفى علينا ان الكتبة الذين رووا الحادثة جاءوا بعد الواقعة بقرنين كما نبّه الى ذلك المؤلف . ومن جانب آخر قد تفيدنا الاشارة الى ان تقارب المرضعين الجغرافيين قد يكون سبباً لنشأة الاسطورة ، وليست قلعة الـ . . . الا على بعد نحو ستين كيلو متراً من پينيا شرقيره (Peña Cervera) واما كانت على طريق رجوع القائد المسلم نحو ثغره الاقرب الى الحدود اعني مدينة سالم . وان هذه الرواية قد تكون انموذجاً لنقد المؤلف المدقق ولثقابة نظره التاريخي .

* * *

بعد ان وصفنا الكتاب الوصف السريع في هذه الصفحات ، نقول انه سيبقى الى زمان طويل التاريخ الذي لا يفوقه غيره فيما يخص القرون الاسلامية الاولى في اسبانية .

لقد كان كتاب دوزي على مدى القرن تقريباً دستوراً للباحثين في هذه الناحية ، وعلى الاخص بعد ان اعمل لافي پروفنسال فيه النظر والروية وجدد طبعته .

لكن هذا التاريخ الذي نحن في صدده فاقه ، ولم يفقده حقه من تقديرنا لان اوضاعه الجوهرية لم تتغير بالدروس الحديثة كما قال لافي پروفنسال وكما هو بيّن مثلاً في الكلام على ملك المنصور من (٩٨١ الى ١٠٠٢) . وسوف يبقى مؤلف دوزي مرجعاً لمعرفة التفاصيل او للتطوّر الذي لم يرَ لافي پروفنسال رأيه في اقتضابه . ولكن لا بد من القول ان بنيان لافي پروفنسال بعد ان ارتفع على مواد وافرة كان الكثير منها مجهولاً على ايام دوزي ، ظهر اكثر التحاماً في اجزائه وجاء بنتيجة جهد جهيد وعقل ثاقب لم يتمتع بمثله المؤلف الذي سبقه .

نختم هنا مقالنا بالاعراب عن تمنياتنا بان يكمل السيد لافي پروفنسال مشروعه فيأتينا بصفحة جديدة تصور الدولة الاسبانية الاسلامية تصويراً تاماً بعد ان تبسط بسطاً واسعاً في سرد اخبارها التاريخية .